الحياة
AL HAYAT
تجريبي

«الحايك» هوية بصرية جزائرية تصارع صون التراث

الخميس، ٣١ مارس/ آذار ٢٠١٦ (٠١:٠٠ - بتوقيت غرينتش) النسخة: الورقية - دولي

الجزائر - أمين لونيسي آخر تحديث: الخميس، ٣١ مارس/ آذار ٢٠١٦ (٠١:٠٠ - بتوقيت غرينتش)

أعادت جزائريات يرتدين لباساً أبيض في قلب عاصمة البلاد، حنين الزمن الجميل، حين كان ما يسمى بـ «الحايك»، وهو اللباس التقليدي قبل أكثر من ثلاثة عقود، رمزاً من رموز الحشمة لدى المرأة، بعدما حوّله الحجاب والأزياء العصرية إلى مجرّد ذكرى.

وبات يقتصر ارتداء «الحايك» على بعض المسنات، وهو صارع البقاء ما بعد خروج البلاد من «العشرية السوداء أواخر» تسعينات القرن الـ20. لكن العاصمة الجزائرية ومدناً داخلية تشهد من حين آخر خروج نسوة تتراوح أعمارهن بين 18 و45 سنة، في مسيرات بيضاء بـ «الحايك»، فيبرزن وجوههن وهن مبتسمات، في إطار سعيهن لإحياء تراث تقليدي في طريقه إلى الاندثار، مشكّلات ديكوراً مميزاً في شوارع عتيقة، انطلاقاً من حي القصبة إلى مبنى البريد المركزي التاريخي وساحة أودان.

والحايك قطعة من القماش ترتديه المرأة لتستر رأسها ووجهها وسائر جسدها، وتعود جذوره إلى حقبة العثمانيين، بعدما كان لباس نساء الأندلس إنتقل إلى المغرب العربي مع قدوم لاجئين أندلسيين في مطلع القرن الـ16، ثم انتشر في أرجاء البلاد مع اختلاف لونه بين مناطق شرق الجزائر ووسطها.

وتقول الرواية الشعبية إن نساء الشرق الجزائري كن يلبسن الحايك الأبيض، ثم لما قتل صالح باي (شخصية عثمانية حكمت هذه المنطقة خلال القرن الـ18)، لبسن عباءات سوداً (حايك أسود) حزناً عليه، إلى أن أضحى هذا اللباس اليوم حكراً على المسنات.

ويصفه المؤرخ الإسباني دييغو هايدو (القرن الـ17) في كتابه «طوبوغرافيا حاضرة الجزائر»،

بأنه معطف طويل فضفاض من الصوف الناعم أو من قماش الصوف أو الحرير.

كما كانت العروس الجزائرية لا تخرج من بيت أهلها لتزف إلى بيت الزوجية إلا بهذا اللباس التراثي التاريخي. غير أن ارتداء هذه اللباس بدأ بالتراجع وسط الجزائريات خلال ثمانينات القرن الـ20، مفسحاً الطريق أمام الحجاب الأسود، اللباس الإسلامي في المغرب العربي، الذي أضحى يميّز المرأة وكرس في تحويله «فرضَ عين» ممن يوصفون بالراديكاليين خلال التسعينات، بعدما حاولوا إشاعة مظاهر الحشمة وسط المجتمع الجزائري.

جزء من الهوية البصرية

وتعتبر سعاد دويبي مطلقة مبادرة لبس الحايك، رئيسة جمعية «بلارج» في المدرسة العليا للفنون الجميلة، في تصريح إلى «الحياة»، أن «الحايك جواز سفرها في الشارع الذي يستحضر حقبة ماضية من الحنين إلى ارتدائه»، مؤكدة أنها لقيت صدى كبيراً وتمكنت من جذب انتباه جمهور عريض من اللواتي شاركن في مسيرة بيضاء خلال الأعوام الماضية (عشية كل 19 آذار – مارس بدءاً من عام 2013)»، وتستدرك مضيفة: «صحيح أن الحايك ذو أصل تركي، لكنه جزء من هويتنا البصرية في مدن الجزائر وله علاقة بصون التراث».

وتابعت: «كفنانة تشكيلية أردت التعامل مع هذا اللباس كمادة فنية، ليخرج من المتاحف والمعارض، في محاولة جادة للتعريف به وإحيائه. ومثلما وصلت العباءة الخليجية إلى العالمية أردت له أن ينتشر الحايك كموضة عصرية».

وذكّرت دويبي بموقف الرئيس الجزائري الراحل أحمد بن بلة الذي حكم البلاد مدة ثلاث سنوات بعد الاستقلال عام 1962، الذي اعتبر ارتداء الحايك «تخلفاً».

ولا يزال الحايك راسخاً في مخيّلة المجتمع، نظراً لدوره إبان حرب الجزائر، فقد درج استخدامه بين رجال جبهة التحرير الوطنية ونسائها بغرض التخفي من أجل نقل الأسلحة والإفلات من رقابة الجيش الفرنسي. كما يُعد رمزاً لمقاومة المجتمع الجزائري للسلطة الاستعمارية التي كانت ترى تحرر المرأة في الكشف عن جسمها ووجهها.

وفيما يعتبر الأبيض هو اللون الغالب في مناطق شمال البلاد وغربها، فإن الأسود هو اللون المفضّل لدى نساء شرق الجزائر، في حين ترتدي نساء الجنوب لحافات تتراوح ألوانها من الأزرق القاتم إلى الأصفر والأخضر الفستقي.

اعتراض على ارتدائه يومياً

بيد أنه سرعان ما انتشر ارتداء الحايك الذي صنّع طوال قرنين من أقمشة قطنية وحريرية أو حريرية اصطناعية، في أنحاء الجزائر، مع تسجيل تكييفه وفق الخصوصيات الثقافية والاجتماعية لكل منطقة. ونتج عن ذلك تنوّع كبير في اللحافات التقليدية عبر البلاد، بدءاً من حايك «المرمة» وحايك «بلعجار» الذي عرفت به نساء العاصمة وضواحيها، مروراً بحايك «بوعوينة» الذي انتشر في البليدة وتلمسان ووهران، ثم «الاهولي»، و «الغانبور» الذي ساد في منطقة غرداية، وصولاً إلى «الملاية».

وتعترض أستاذة علم النفس نصيرة خلوفي على عودة استخدام الحايك عباءة يومية، معتبرة أن «إحياءه كتراث وفي مناسبات معينة أمر مرحب به، أما أن نعود إلى ارتدائه كلباس يومي تعبيراً عن الاحتشام، فهذا شيء آخر، إذ يمكننا ارتداء ألبسة مغايرة عصرية ومحتشمة في آن».

وعلى رغم أنه جزء من تراث ثقافي، يرى اختصاصيون أن الحايك على مشارف النسيان وآيل إلى الزوال، وقد يختفي برحيل آخر الجدات، إذ يصعب اليوم العثور عليه في المحلات بعد أن ندرت صناعته تدريجاً، لا سيما بعد دخول التيارات الحضارية على المجتمع الجزائري، فلم يعد الجيل الحالي يعي خصوصيات حقبة تاريخية معينة من تاريخ البلاد.

1